

الفصل التاسع

أهم دور الكتب والوثائق في العالم وكيفية الاستفادة منها

يشهد التاريخ لامتنا بأنها حرصت منذ أقامة دولتها الإسلامية الكبرى على أن تكون المكتبات العامة حارسة للمخطوطات ، ومدارس مفتوحة. الأبواب لطلاب العلم ، ورصدت لها من الجهود والأموال ما جعلها مقصد العلماء ، والطلاب في زمن لم يعرف سوى الكتاب وسيلة لنشر الثقافة ومن أشهر هذه المكتبات بيت الحكمة ببغداد ، ومكتبة العزيز بالله الفاطمي بالقاهرة ، ومكتبة الزهراء بقرطبة ، وخزانة سيف الدولة في حلب ، والظاهرية في دمشق ، ومكتبة الأزهر بمصر والجامع الأعظم في القيروان ، وجامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس وغيرها (١) .

وتاريخ المكتبات مرآة صافية ينعكس فيها تاريخ الحضارة الانسانية بوجه عام ، وتاريخ التقدم الفكرى بشكل خاص .

فالمكتبات ومحتوياتها تراث انساني مشترك ساهم فيها أغلب الشعوب بدرجات متفاوتة وهى ذاكرة الجنس البشرى التى تحفظ تراث الانسانية وتقوم بتنظيمه ، واعداده للاستعمال والاستفادة منه (٢) .

وتاريخ المكتبات هو جزء من تاريخ الحضارة الانسانية ، ودراسة

(١) للتفاصيل انظر عائشة عبد الرحمن : المرجع السابق صفحة

(٢) محمد ماهر حمادة : المكتبات في العالم - تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين ، الرياض ، دار العلوم ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ص ٧٠ .

الفكر الانسانى ، خصوصا وأنه يشتمل على أوعية المعرفة الانسانية
الوارثة لثمرات العقول على مدى العصور والادهار (٣) .

والنظام التعليمى الحديث يرتكز على المكتبات لكونها المصدر الرئيسى
للمعلومات ، فهناك عناصر ثلاثة على الأقل تدخل فى العملية التعليمية
الحديثة ، وهى الأستاذ والطالب والمكتبة خصوصا وانها تركز على تنمية
القدرات الطلابية وعلى الميول والرغبات .

يضاف الى ذلك ان المكتبة هى المكان المثالى الذى يهيىء البيئة التعليمية
المطلوبة لتحقيق أهداف التعليم لمختلف القدرات والرغبات والاحتياجات ،
كما ان توجيهه واشراف الأساتذة على مشروعات الطلاب البحثية ومتابعتها
خطوة خطوة من شأنه أن يكسب الطلاب مهارات التعلم الذاتى وبناء شخصيتهم
العلمية والاجتماعية (٣) بمعنى أن التعليم فى مفهومه المتطور يركز على
تكوين المهارات الأساسية والاتجاهات العلمية التى تجعل الطالب قادرا
على تعليم نفسه بنفسه ، وليس مجرد حشو ذهنه بالمعلومات ومن هنا
تبرز أهمية المكتبات التى يلتقى فيها الماضى بالحاضر ، ويطل الحاضر على
المستقبل . وغنيا يلى سنعرض لنماذج من دور الكتب والمكتبات فى العالم

أولا : فى مصر

١ - دار الكتب المصرية :

انشئت دار الكتب المصرية فى عام ١٨٧٠ م ولتأسسها بمقدمات
ترجع الى عهد محمد على ، فقد أنشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة فى
بيت المال القديم خلف المسجد الحسينى . ولما ولى اسماعيل الحكم اضاف

(٣) المجلة العربية للعلوم الانسانية بالكويت : العدد السادس ، المجلد
الثانى ربيع ١٩٨٢ مقال تحت عنوان المكتبة الشاملة كبحور لعملية البحث
والتعليم فى الجامعات المصرية ص ٦٥ - ٧٩ .

اليها نحو ألفى مجلد من المحفوظات العربية والفارسية ، ثم تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب ^(٤) .

ويذكر صاحب الخطط التوفيقية أن الخديوى اسماعيل هو صاحب فكرة تأسيس دار الكتب المصرية ، وأنه أراد أن تكون هذه الدار مكانا لجميع الكتب المنقرضة في المساجد والمخازن الحكومية ، ومكاتب الأوقاف وغيرها ^(٥) ، وأنه أمر « على باشا مبارك » بالعمل على تحقيق ذلك ، فشرع في بناء الكتبخانة الخديوية في سراى درب الجمائز ، وجعل لها ناظرا ، ورتب لها خدمة ومعاونين ، وعمل لها قانونا لضبطها وعدم ضباغ كتبها ^(٦) .

وقد ابتاع الخديو اسماعيل مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير « مصطفى فاضل » بعد وفاته ، وأهداها الى دار الكتب ، كما ابتاع نحو ألفى مجلد من المحفوظات العربية والفارسية من تركه « حسن باشا المنسترلى » وأهداها الى دار الكتب أيضا ، يضاف الى ذلك أنه تم الانفاق على هذه الدار من ميزانية المدارس وفتح أبوابها لطلاب العلوم والمعارف ، وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات ما كان يمكنهم الوصول اليها لولا إنشاء هذه الدار ، فادت ولا تزال تؤدي خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية ^(٧) .

وتتميز مقتنيات دار الكتب المصرية أنها تضم مجموعة فريدة من أوراق البردى العربية تقدر بحوالى أربعة آلاف بردية وقد تم نشر بعضها بواسطة الاستاذ الدكتور A. Grohmann ونشر البعض الآخر عن طريق بعض علماء البرديات من المصريين ^(٨) .

-
- (٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م ص ٢٤٦ .
(٥) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥١ .
(٦) على مبارك : الخطط ج ٣ ص ١٤ .
(٧) الرافعى : المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧ .
(٨) للتفاصيل انظر د. عبد العزيز الدالى : البرديات العربية ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٣ ص ٦٦ — ٧٠ .

٢ — دار المحفوظات العمومية بالقلعة :

تأسست في عهد محمد على في عام ١٢٤٤هـ ، وأطلق عليها
الدفترخانة ، وذلك كجزء من اهتمام محمد على بتحديث ادارات الدولة ،
وحفظ أوراقها وسجلاتها وفقا للوائح والتعليمات التي تصدرها الحكومة .

وظلت هذه الدار منذ ذلك الوقت تبثل الدار المركزية لحفظ الوثائق
في مصر ، حتى جاء عصر اسماعيل وأنشئت النظارات المختلصة التي تم
الاحتفاظ فيها بأرشيفات خاصة بها ومن ثم نشأ نظام تعدد أماكن حفظ
الوثائق^(٩) .

وفي عصر الملك فؤاد ازداد الاهتمام بأمر الوثائق ، كما تشكلت لجنة
في عام ١٩٢٥ برئاسة « حسن باشا نشأت » لحصص الوثائق وتصنيفها
وترجمتها ، وفي أعقاب ذلك نقلت بعض الوثائق الموجودة بالقلعة الى قصر
عابدين في دار أطلق عليها « دار الوثائق السرية والمحفوظات التاريخية
الملكية » ، وقد اقتضت هذه الدار على الوثائق التاريخية من بداية
عصر (محمد على) وحتى بداية الحرب العالمية الأولى .

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بعدة سنوات حاولت الدولة جمع
الأوراق التاريخية في مكان واحد لتيسير دراستها والعمل على الإفادة منها
فتأسست دار الوثائق القومية^(١٠) .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت دار المحفوظات تضم مجموعة كبيرة
من الوثائق ، وبخاصة التي يتعرض منها لتاريخ مصر الاقتصادي
والاجتماعي ، هذا الى جانب ملفات خدمة وربط معاش المدنيين من
رجال مصر الذين شاركوا في أحداثها التاريخية أمثال عبد الله النديم ،
وأحمد عرابي ، وسعد زغلول ، ومصطفى فهمي ، ورياض باشا وغيرهم .

(٩) د. على بركات : دراسات في منهج البحث التاريخي ، ١٩٨٠ ص

٤٥ .

(١٠) د. محمود عباس حمودة : المرجع السابق ص ٤٠ — ٤١ .

وعن أهم المجموعات الوثائقية الموجودة في هذا الدار نذكر :

- ١ — دفاتر التزامات الجمارك .
- ٢ — دفاتر التزامات الولايات القبلية والبحرية .
- ٣ — دفاتر المكلفات .
- ٤ — دفاتر مسموح ومرتبث بدل مسموح .
- ٥ — دفاتر عمد ومشايخ القرى .
- ٦ — دفاتر جرایة وعلیق .
- ٧ — دفاتر قيد ديوان مصر .
- ٨ — دفاتر قيد الأوامر المصادرة بديوان الجهادية .
- ٩ — مجموعة الفرمانات الصادرة من الباب العالي لمصر المحروسة .
- ١٠ — محافظ الدائرة السنينة .
- ١١ — محافظ الداخلية .
- ١٢ — سجلات عبور خفر السواحل .
- ١٣ — سجلات المحاكم الشرعية .
- ١٤ — أوراق لجنة التصفية .
- ١٥ — أوراق وسجلات المديریات .
- ١٦ — أوراق السودان .

والجدير بالذكر أنه لا توجد فهرس منظمة للوثائق الموجودة في دار المحفوظات ، كما أن الاهتمام بهذه الوثائق يكاد يكون معدوما مما يضع الباحثين أمام محنة حقيقية .

٣ — دار الوثائق القومية بالقاهرة :

تأسست هذه الدار طبقا لنص القانون ٣٥٦ لسنة ١٩٥٤ ومهمتها جمع الوثائق التى تتصل بتاريخ مصر فى جميع العصور وتيسير البحث والاطلاع والعمل على نشر الوثائق ورفع مستوى البحوث التاريخية^(١١) .

هذا وقد نص القانون ٣٥٦ فى مادته العاشرة على تشكيل اللجان الدائمة للمحفوظات للإشراف على صيانة المحفوظات ، وعمل سجلات لها ، ولتكون حلقة الاتصال بين تلك الجهات ، ودار الوثائق القومية .

وعن تحديد معنى الوثيقة فان كل وثيقة مهما كانت مدتها فانها يمكن أن تكون جزءا من المادة التاريخية على مرور الأيام خصوصا وأن جميع الوثائق لازمة للمؤرخ سواء فى ذلك الوثائق المسالية أم الادارية أم التعليمية أم القانونية أم غيرها^(١٢) .

ومن المعروف أن المؤرخ ليس عبدا للوثائق والمخطوطات بل هو ناقد حصيف يختار منها ويكتب ما يخاطب به عقول الناس فى كل عصر . ومن البدهى القول أن الشعوب المتقدمة فى سلم الحضارة تحافظ على وثائقها خصوصا وأن هذه الوثائق تعد كنوزا ثمينة ، فهى الشاهد الأكبر على التاريخ ، وهى الدليل الأعظم على الشخصية الحضارية لآى شعب من الشعوب . والدراسات التاريخية المبكرة تعتمد اعتمادا كبيرا على الوثائق كونها من المصادر التاريخية الأصلية والأساسية لكل باحث يرغب فى اضافة حقائق علمية لم تكن معروفة من قبل سواء للمؤرخين أم غيرهم^(١٣) .

(١١) محمود عباس حمودة : النشاط الدولى فى خدمة الوثائق ، مخطوط . صفحة ٤١ .

(١٢) دار الوثائق القومية : نشرة تفسير القانون ٣٥٦ لسنة ١٩٥٤ وتنظيم المحفوظات ص ٢٦ .

(١٣) الدارة : العدد الأول ، شوال ١٤٠٥ / يونيو ١٩٨٥ مقال للاستاذ عبد الله الحقيلى تحت عنوان « أهمية تجميع تراثنا الوثائقى المتناثر فى مكتبات العالم » .

وعن أهم المجموعات الوثائقية الموجودة في هذا الدار نذكر :

- أوراق تتعلق بالسيد جمال الدين الأفغاني .
- أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العربية .
- تقارير عن الثورة العربية .
- محافظ الثورة العربية .
- محافظ مجلس الوزراء .
- محافظ مجلس النظار .
- ديوان خديو .
- ديوان المعية السنية (عربى) .
- محافظ الحجاز .
- محافظ الشام .
- محافظ عابدين .
- محافظ الأبحاث .

هذا الى جانب مذكرات العديد من القادة الذين شاركوا في الأحداث ومنها مذكرات أحمد عرابى المعروفة بكشف الستار عن سر الأسرار ، ومذكرات مصطفى كامل ومذكرات محمد فريد ، ومذكرات ابراهيم الهلباوى ، ومذكرات محمد على علوبة وغيرهم .

ثانياً — في تركيا

نظرا لأن مدينة استانبول ظلت دارا للخلافة الاسلامية اكثر من أربعة قرون ، فقد حوت من تراثنا الاسلامى ما لم تحوه مدينة اسلامية أخرى لذلك سنخص أهم مكتباتها بالذكر .

١ — المكتبة السليمانية :

ويطلق عليها اسم (سليمانى عرومى كيتخانه سى) أى المكتبة السليمانية العامة ، وقد جمعت الحكومة التركية في هذه المكتبة محتويات

العديد من المكتبات الحكومية ، وجعلتها مقرا للهيئة الحكومية التى تشرف على جميع المكتبات التركية ، وهيأت مهابرس منظمة لهذه المكتبة ، وأوجدت بها أماكن خاصة للتصوير ، وخصصت قاعتين للطباعة أحدهما لمطالعة المخطوطات ، والأخرى للباحثين والطلاب ، ويوجد بهذه المكتبة ما يقرب من عشرين ألف مخطوط ليست جميعها باللغة العربية ، بل منها ما هو مكتوب بالتركية والفارسية .

٢ — مكتبة السلطان محمد الفاتح :

تعد من أقدم المكتبات فى تركيا ، حيث أنشئت فى عام ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م ، وهى غنية بالمخطوطات حيث بلغ مجموع محتوياتها ٥١٨٨ مخطوطا .

٣ — مكتبة السلطان أحمد الثالث :

وتقع هذه المكتبة بالقرب من مسجد آيا صوفيا ، وبها نفائس من المخطوطات والكتب والتى من أهمها :

- الفتوحات العثمانية للأقطار اليهنية لإبراهيم سنان باشا .
- البرق اليمانى فى الفتح العثمانى للنهروالى .
- صورة الأرض ووصف أشكالها لابن حوقل .

٤ — مكتبة آيا صوفيا :

وتضم طائفة من المخطوطات النفيسة والنادرة ومن أهمها كتاب (فضائل مكة والمدينة لأؤلف مجهول) .

ثالثا — فى الولايات المتحدة

مكتبة الكونجرس الأمريكى :

يبدأ تاريخ مكتبة الكونجرس مع تاريخ الولايات المتحدة فنتيجة لاحتياج أعضاء الحكومة الأمريكية ، وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب الى مراجع ومصادر لاجراء بحوثهم ومناقشتاتهم كان لابد من انشاء مكتبة لسد هذه الاحتياجات فتأسست مكتبة الكونجرس فى عام ١٨٠٠م ، وعين الرئيس

جيفرسون أول أمين لها . وقد نمت مكتبة الكونجرس نموا رائعا وتوسعت مجموعاتها كل التوسع ، وتعددت خدماتها وتنوعت ، وأخذت مركز المكتبة الوطنية ، ثم أصبحت على مر الزمن أضخم مكتبة في أمريكا ، كما أصبحت مركزا للثقافة العالمية ، الى جانب كونها مركزا للثقافة الانجلوسكسونية ، وايضا فان تشجيعها للعلوم والفنون والدرس ، جعلها اقرب الى ان تكون جامعة وطنية .

وعلى الرغم من أن مكتبة الكونجرس تقدم خدماتها للكونجرس وجميع موظفي أجهزة الدولة الاتحادية التنفيذية والقضائية والعلماء والباحثين والطلاب ، والمكتبات في أرجاء العالم ، وعلى الرغم من أنها ليست مكتبة عامة الا أنها تفتح أبوابها للراشدين من عامة الناس ، وتقدم خدماتها لهم في حدود الاطلاع الداخلي والتصوير فقط .

والجدير بالذكر أن مكتبة الكونجرس لم تكن المكتبة الوطنية الوحيدة التي تديرها حكومة الولايات المتحدة الاتحادية ، بل يوجد عدد كبير من المكتبات الحكومية الأخرى ، ففي واشنطن وحدها أكثر من مائة مكتبة حكومية اتحادية (١٤) .

رابعاً — في أوروبا

— مكتبة المتحف البريطاني :

في القسم الشرقي منها العديد من الكتب والمخطوطات العربية التي تتعلق بتاريخ العرب ، وبها فيارس بالكتب العربية في ثلاثة مجلدات . وتعد هذه المكتبة أحد مصادر المعرفة الانسانية الكبرى في العالم ، وقد بلغ عدد كتبها في العقد السادس من هذا القرن أكثر من سبعة ملايين مجلد ، وأكثر من مائة ألف مخطوط (١٥) ، ومن أبرز كنوزها حجر رشيد الذي اكتشفه شامبلين الفرنسي ، والذي كان مفتاحا للتعرف على اللغة المصرية القديمة .

(١٤) حمادة : مرجع سابق ص ٣٥٣ — ٣٦٤ .

(١٥) نفسه ص ٢٢١ .

— مكتبة جامعة ليدن بهولندا :

تعد مدينة (ليدن) من أهم مراكز الاستشراق فى أوروبا وفيها مطبعة (بريل) التى تعد أكبر وأقدم مطبعة عربية فى أوروبا ، وفيها طبع العديد من المؤلفات العربية كدائرة المعارف الإسلامية ، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف .

وهذه المكتبة تضم ما يقرب من المليون ونصف الكتاب وبها قسم شرقى يضم حوالى سبعة آلاف كتاب منها حوالى ثلاثة آلاف مخطوط .

— مكتبة الفكر الأوربية بألمانيا :

قامت الحكومة الأمريكية ببناء هذه المكتبة بعد الحرب العالمية الثانية وجمعت فيها من الكتب ما لم يمكن أن يوجد مثلاً فى أى مجتمع بأوروبا .

المركز الدولى للوثائق :

International Council Archives

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وما جرته على المجتمعات الانسانية من تدمير وخراب ، تبنى بعض المفكرين صيغة من التعاون بين الدول عن طريق اعتماد النقاسة والعلوم فى المعاملات الدولية . وفى نوفمبر من عام ١٩٤٥ افتتح فى لندن المؤتمر الدولى الذى كان بداية وميلادا للمنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة التى تعرف بمنظمة اليونسكو ، وخلال ذلك الاجتماع اتخذ المؤتمر قرارا بتشكيل المجلس الدولى للوثائق ، كما تقرر اتخاذ باريس مقرا دائما له ، وكان أول عمل قام به المجلس المذكور هو اعداد أدلة وفهارس ببليوجرافية للوثائق التى نشرت فى أوروبا منذ عام ١٩٣٤ ومنذ عام ١٩٠٠ بالنسبة لباقى القارات الأخرى ، فكان ذلك أول مطبوع يؤكد ويدلل على التعاون الدولى فى حقل الأرشيف .

أما عن أهداف هذا المجلس فنتلخص فيما يلى :

- (أ) عقد المؤتمرات الدولية للوثائق بصورة دورية .
- (ب) اقامة العلاقات وتنميتها وتعزيزها بين أمناء الوثائق فى كافة البلاد .

(ح) تشجيع كافة الاجراءات المتخذة للمحافظة على التراث الوثائقي
الانسانى وصيانتته .

(د) التعاون مع الهيئات ذات العلاقة بالتوثيق ، وبشكل يضمن
صيانة الخبرة البشرية واستخدام التوثيق من أجل صالح الانسانية^(١٦) .

وبعد أن تعرضنا لبعض النماذج من دور المكتبات والوثائق في العالم
ينبغى أن نذكر أن لهذه الدور وغيرها أهمية قصوى في انجاح تكوين
الانسان المثقف القادر على تعليم نفسه بنفسه ، والذي يمكنه الاستفادة من
مصادر التعلم . يضاف الى ذلك أن الحركة التاريخية يصعب عليها أن
تنهض بنفسها الا اذا هيأت دور الوثائق والمحفوظات والمكتبات التى تضم
أشتات المعلومات نفسها لمساندة المؤرخين وعملت على تيسير الأمور لهم .

(١٦) حمودة : المخطوط سابق الذكر ص ٨ — ١٢ .